أنا والأحمـــر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

غضبتُ على ذات دل وحسن . ومن النساء من تدل ولا حسن لهـا . ومنهن الجميلة التي لاتدرك قيمة ماوهبها الله ؛ ولـكن هذه عارفة مدركة أصح إدراك وأدقه . وآية ذلك أنها لاتنفك تؤكد خصائص جمالها وتبرزها بألوان الثياب ، وأسلوب التفصيل ، وبطريقة تسريح الشعر وفرقه ، وبحركاتها ومشيتها ولفتة وجهها ، والجانب الذي تؤثر أن تمنحك منه ، وبابتسامتها وخطرتها ووقفتها ، وبالصورة التي تعرضها على عينك وهي متكئة على ظهر كرسي أو حافة شرفة ، إلى آخر ذلك إذا كان له آخر

وسر هذا الغضب أنها تؤمن بالدلال — كما لايسعها إلا أن تفعل — وأنى أنا أومن بقول المتنبي عليه ألف رحمة :

زودينا من حسن وجهك مادا م فان الجمال حال تحول

وصلينا نصلك فى هـذه الدنـــيا فان المقام فيها قليـــل

فلها عقلها وطبيعتها ، ولى عقلى وطبيعتى ؛ ومن أجل ذلك نحن مختلفان متجافيان — ترانى فتعرض عنى ، وأراها فأتجاوزها بعينى ، كأنها ليست هناك ؛ وتراجع نفسها أحياناً فتصفو وتقول عفا الله عما سلف ، وتومئ إلى إيماءة تجعلها خفيفة خفية من الكبر والتردد ، فأتجاهل وأتعامى وأتباله ، فترجع إلى شر مما كانت فيه من الغضب والسخط ، وتمنحنى كتفها أو تولينى ظهرها ، وتمضى الأيام على هذا التقاطع الشديد — أخرج إلى الشرفة وتكون هى مطلة من النافذة فتأخذنى عينها ، فما أسرع ما تتناول مصراعى الشباك وتغلقهما بعنف لا داعى له سوى أنها تريد أن تسمعنى صوت الاغلاق لأدرك معناه . وأكون أنا فى الشرفة فتظهر فى نافذتها أو شرفتها ، فلا أكاد أراها حتى أعبس وأمط بوزى . كان من سوء حظى ألا أستطيع أن أقف فى الشرفة دقائق من غير أن تسد الفضاء أمامى ، ثم أدور دورة سريعة وأرتد إلى الغرفة ملتمساً الوقاية من جدرانها

ولم يكن هذا حالنا من قبل ، بل كنت أقبل عليها فتهش لى وتريني وميض أسنانها والتماع عينيها ، وكنت ألقاها فتدنو منى حتى لأحس أنفاسها العطرة على وجهى ، وتضع راحتها البضة على قلبى وتقول لى : « كيف حال هذا المسكين الذى لا يمل الدق بل الوثب ؟ »

فأقول « أتريدين أن يمل »

فتقول « أعوذ بالله . . ما هذا الكلام ياشيخ . . »

فأصرف الكلام عن وجهه وأقول « إنه يدق لى ولك ، فلا عجب إذا كان يتوثب »

فتبتسم لى — فى عينى — وتقول : « ألا يمكن أن يفتر ذكرك لى — يفتر قليلا — ليرتاح هذا القلب بعض الراحة . . إنه عنيف الدق وأنا أشفق عليه »

فأقول « لا تخافى عليه ولا تجعلى اليه بالك . . دعيه يدق فان هذا عمله وواجبه فى الحياة »

ثم نمضى معاً إلى حيث يروق القعود ويطيب الحديث وتحلو النجوى ويحسن الغزل ، ونرجع ضاحكين وتنام ملء عيوننا

شيء حقيق ، يلمس الروح فيرتفض عليها بمثل الندى ، فاذا هى ترف رفيفا ، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل

وسمعنا القرآن غضاً طرياً كأول مانزل به الوحى ، فكان هذا الصوت الجميل يدور فى النفس كأنه بعض السر الذى يدور فى نظام العالم . وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور .

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هى معجزة الروح متى كان الانسان فى لفة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية

أما الطفل الذى كان فى يومئذ فكأنما دعى بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يجيء فيه من بعد . فأنا فى كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا فى كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله .

طنطا مصطفى صادق الرافعى

وقلت لها مرة « لماذا هذه المساحيق كلها . . ماحاجتك إليها؟ كيف يمكن أن يفتقر إلى زيفها هذا الوجه الخارج من الفردوس؟

فضحكت وقالت « أهو زيف . . ؟ »

قلت مغالطاً « إنه تأكيد لا حاجة بك إليه »

قالت « يا خبيث . . اعترف أنك تريد أن تقبل فى وتخشى أن يعلق بشفتيك الأحمر ! »

قلت « ألا يكون مجنوناً أو أعمى ذاك الذى لا يشتهى أن يقبل هذا الفم الجميل ! »

قالت « لا تغالط . . دع العموم إلى الخصوص »

قلت « أتتعمدين أن تضعى هذا الأحمر إذن ؟ »

قالت « لا . . هى عادة ليس إلا . . »

قلت ملحاً : « أتكرهين أن أقبلك . . أو بعبارة أصرح فان عفريت الصراحة ركبنى اليوم . . ألا تشتهين هذه القبلة التى تقيمين فى سبيلها الحواجز وتضعين الأسلاك الشائكة أو الأصباغ العالقة ؟ »

قالت « مالك اليوم . . ما ذا جرى لك ؟ »

قلت : « إن الذى جرى لى هو هذا . . أنت تعرفين أنى أحب فمك . . وأنت لا تكرهين أن أضع شفتى على شفتيك . . وتعرفين أيضاً أنى شديد الكره لهذا الأحمر السخيف ، وتعرفين فوق هذا أن إزالته سهلة إذا هو علق بفمى منه شىء يسير أو كثير ، ولكنى مع ذلك أكرهه لله . . هكذا أنا . . خلقنى الله كذلك ولا حيلة لى . . فلماذا تصبغين به شفتيك على الرغم من ذلك . . ليس الأحمر فى ذاته هو الذى يضايقنى ولكن تعمد وضعه . إذا كان الدلال هو الباعث على ذلك فان الدلال ميسور بغير الأحمر . وعلى أن الدلال حسن وجميل ، وهو يشحذ الرغبة ويقوى الحب إذا كان فى حدود الاعتدال ولم يجاوز المعقول أو المحتمل . . أى ما يسهل على الرجل احتماله بلا عناء شديد أو مرهق ، ولكن المرأة لا تفهم هذا مع الأسف ، وهى لا تزال تلح فى الدلال وتلح وتلح حتى يسأم الرجل وتنتفخ مساحره ويتعذر عليه الصبر ويضيق صدره فيفتر حبه ، لأنه يكلفه فوق ما تطيق أو ما يمكن أن تحتمل طبيعته ، فتذهب المرأة تقول غدر الرجال وعدم وفائهم وتقلبهم ؛ ولو أنصفت للامت نفسها ولأدركت أنها هى التى أملته وأزهقت روحه

فقطبت وقالت « أهذا تهديد ؟ »

قلت « وهذا خطأ آخر . . فليس فيما أقول تهديد وإنما هو عجب واستغراب يدعو إليهما اختلاف الطبيعتين . . »

فقاطعتنى وقالت « قل إن طبيعتك المتجبرة تريد أن تجعل منى ملهاة لنفسك لا تخالف لك إرادة ولا تعصى لك أمراً . . »

فقاطعتها وقلت : « كلا : ليس هناك تجبر ولا شبهه ، إنما أشرح لك ما تغريك به طبيعتك وما تغرينى به طبيعتى . . »

ولا أحتاج أن أروى كل ما قالت وقلت ، فان فى مقدور القارىء أن يتصور ذلك ، وأكبر الظن أن تجارب مثل هذه مرت به وعاناها ، فما تعيش المرأة بغير رجل ولا الرجل بغير امرأة إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ؛ ومتى عاش رجل وامرأة فلا مفر من أن تسوقهما الطبيعتان إلى الشجار والنقار فى بعض الأحيان ، وأكثر ما يحدث ذلك من جراء توافه لا قيمة لها ، ولا يجرى فى الخاطر أن تجر إلى خلاف .

وقد حاولت يومذاك أن ألاعبها وأمازحها بعد فتور الحدة وذهاب السورة ، ولكن تعبى ذهب عبثاً ، ورجعنا وقد أيقن كل منا أن هناك سراً أعوص لما أبدى صاحبه من الجفاء وضيق الصدر .

ولقيتها بعد ذلك ، فقلت لنفسى إن العتاب يجدد مرارة الخلاف ، ولم يكن لى ولا لها مفر من الكلام والنفاق ، فقد كنا فى حفل حاشد من المعارف والأهل ، وانفض السامر فناولتها ذراعى وقلت « تعالى فأن بى حاجة إلى الهواء الطلق » فابتسمت ، فتوهمت أنها نسيت ما كان بيننا أو آثرت مثلى أن تطويه . وإذا بها تقول لى أول ما تقول ونحن فى السيارة « إنك مستبد » فعجبت وقلت : « كيف . ؟ لقد كنت أظن أنى من ألين خلق الله وأسلسهم قياداً » فصاحت بى « أنت . . تقول إنك لين سلس القياد . . أعوذ بالله . . . »

قلت وأنا أحاول أن أصرفها عن هذا الموضوع الشائك « طيب . . آمنا وسلمنا . . مستبد مستبد . . كما تشائين . . والآن يا جاحدة . . . »

وكنت أنوى أن أمازحها ، ولكنها قاطعتنى بسرعة وحدة : « جاحدة . . لماذا بالله . . هه »

فقلت لنفسي إن ليلتي لا شك سوداء . . وأنا رجل أكره الجدل العقيم ولا يثقل على نفسي شيء مثله ، ولست أعرف لي صبراً عليه ؛ غير أني ضبطت نفسي ولم أدع عنانها ينفلت من بين أصابعي فقلت : « معذرة . . إني أضحك ولا أعني ما أقول »

قالت « واعترف أنك مستبد »

قلت « إذا كان الاعتراف بما ليس في يرضيك ، فهأنذا أعترف وأمري إلى الله »

قالت « كلا . . إنما أريد اعترافاً صريحاً لا مكابرة ولا تحفظ فيه »

قلت « فليكن ؛ ولكن ما خيره ؟ . ماذا يفيدك أن أقر لك بأني مستبد ؟ . أما إن هذا لغريب »

قالت « اعترف والسلام . . لست أريد فلسفة »

قلت « اعترفنا ياستي . . فهل راق مزاجك ورق »

فضحكت وقالت : « نعم » قلت : « إذن امسحي الأحمر الذي صبغت به شفتيك ، أو دعيني أمسحه لك بهذا المنديل . . إنه نظيف »

قالت « كلا » وأصرت على الرفض والتأبي فقلت : « ألا تدركين أنك مغرورة ؟ » فاحمر وجهها كأنما أفرغت على وجنتيها كل ما في الدنيا من الأحمر ، فقلت وقد تعمدت أن أثقل عليها : « نعم مغرورة . . ولم أكن أحسب شوقي رحمه الله صدق في قوله : والغواني الخ . . تعرفين الباقي . . وأحسبك تتوهمين أن حياتي رهن بأن تمسحي هذا الأحمر . . أو أن روحي معلقة بشفتيك وما يكون أو لا يكون عليهما من الأصباغ السخيفة . . ثقي أن الأمر ليس كذلك . . إنما أنصح لك بمسح الأحمر لأنه . . . »

وأمسكت إشفاقاً عليها من اللفظ القاسي الذي كان على لساني فسكتت ولم تقل شيئاً

والغريب أنها بعد أن نزلت أمام منزلها وودعتها تعمدت أن تقف هنيهة قبل أن تدخل من الباب وتخرج منديلا صغيراً وتمسح به الأحمر عن شفتيها وفي يدها الأخرى مرآة الحقيبة

وكان هذا آخر عهدي بلقائها وكلامها

ولا تزال المعركة ناشبة ، وأحسبنا سنمل هذه الحرب الباردة ـ حرب الشفاه الممطوطة والأكتاف المهزوزة والأشاحة بالوجه والاعراض بالعين وتقطيب الحواجب وتجعيد الجبين ، إلى آخر هذه المناظر المضحكة ، ولولا أني لا أعدم القدرة على رواية الجانب المضحك لانفلقت ، ولكنت حرياً أن ألقي السلاح وأعدل عن الكفاح ، ولكنها هي متكبرة . . أوه جداً جداً . . وأنا كما تعرف . . دائم الضحك ـ هذا أولا ـ وأما ثانياً فاني لا أنفك أقول لنفسي : لقد عشت قبل عهدها دهراً طويلا لا تحس بالحاجة إليها ولا تعرف أنها موجودة . وإنك الآن لتحيا بغيرها ، ولا تعدم نعيما تفيده بدونها ومن غير طريقها ، فماذا ينقصك ولماذا تعنى نفسك بالتفكير في الأمر كله ؟ . . دع كل شيء للظروف والمصادفة . . وليكن ما يكون . . . ولكن يخطر لي أحياناً أني قد ألقاها ولا أرى على شفتيها هذا الأحمر ، فماذا يكون العمل حينئذ ؟ . أقول لك . . دع هذا أيضاً للمصادفة وإلهام الساعة ، إن التدبير هنا قلما يجدي أو يصح . .

ولكن ضحكي يخنقها ، وابتسامي يثير سخطها ، وأنا لا أستطيع أن أكره نفسي على التعبيس بلا موجب ، وهذا هو البلاء والداء العياء ، فانها تتوهم أني أسخر منها فتزداد لجاجة في الصد والاعراض ، وأحسبني سأظل هكذا أبداً . . أفسد على نفسي متع الحياة بسوء تصرفي وقلة حكمتي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

ابراهيم عبد القادر المازني

لجنة التأليف والترجمة والنشر

مع المتنبي

للدكتور طه حسين بك

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع هـــذا الكتاب القيم ويقع في جزأين كبيرين وثمنه ثلاثون قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التاليف والترجمة والنشر ٩ شارع الكرداسي ومن المكاتب الشهيرة